دلالة (لولا) في الاستعمال القرآني

م.م. عماد فاضل عبد

جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية

The Use of Lewla (If not) in the Holly Quran

Asst. Lect. Emad Fadhil Abid

College of the Studies Quran/ University of Babylon

imadfadhil@gmail.com

Abstract

The present paper studies the meaning and the use of lewla (if not) depending on the opinions of grammarians and linguists. And then the study deals with the of the explanations of some Quran verses in which (if not) appeared.

الملخص: يدور هذا البحث حول لفظ (لولا) في القرآن الكريم استعمالًا ودلالة، وهو يقوم على أساس بيان آراء علماء اللغة والنحو في أصلها وأنواعها وتقسيماتها وكل ما يتعلق بها، ثم يعرض البحث لآراء المفسرين في استعمالاتها ودلالاتها في القرآن الكريم في ضوء بعض الآيات التي وردت فيها.

Significance (Lula) in the use of Quranic

Abstract: The purpose of this research on the word (Lula) in the Koran commonly used and connotation, which is based on the statement of the views of linguists and as the origin and types and subdivisions everything related to it, then displays the search to the opinions of the commentators in the uses and implications in the Qur'an in the light of some of the verses that and received.

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين وصلّى الله على نبيّه محمد خاتم المرسلين وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

وبعد.. غير خاف على أهل العربية أنَّ النص القرآني نص معجز يمثل الفصاحة والبلاغة العربية في أعلى مراتبها، وهو معين فياض لا ينضب، ولا تنقضي عجائبه، ظاهره أنيق وباطنه عميق، وليس بوسع الباحث أن يحيط بكنهه، أو يصل إلى قرار في محيطه؛ لما يتفرد به من فخامة في التركيب ودقة في اختيار الألفاظ. ومن شرف البحث اللغوي أن يستقي من القرآن الكريم مسائله. من هنا كان اختيار هذا البحث (دلالة (لولا) في الاستعمال القرآني).

وأمّا سبب اختيار لفظ (لولا) فلكثرة ورودها في الآيات الشريفة من جهة، إذ وردت خمسًا وسبعين مرة في أربع وسبعين آية، ولوقوعها على أكثر من معنى محتمل من جهة أخرى.

وقد حاول البحث الكشف عن أسرار هذا اللفظ في الاستعمال القرآني وبيان مقاصده فيها في ضوء بعض الآيات التي وردت فيها هذا اللفظ.

واشتمل البحث على: تمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

التمهيد: عرّفت فيه بـ (لولا) في اللغة والاصطلاح، وأقسامها وما يتعلق بذلك.

المبحث الأول: درست فيه (لولا) الامتناعية في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: درست فيه (لولا) التي بمعنى (هلّا) في القرآن الكريم.

الخاتمة: عرضت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

التمهيد : (لولا) في اللغة والاصطلاح

(لولا) في اللغة

تكاد المصادر اللغوية تجمع على أنَّ (لولا) كلمة مركبة من لو ولا، فقد ذكر صاحب العين (ت170هـ) أنَّها مركبة وتأتي على معنيين، فقال: ((وأمّا (لولا) فجمعوا فيها بين (لو) و(لا) في معنيين أحدهما: (لو لم يكن) ... والآخر: (هلّا)))[1]. وإلى مثله ذهب الأزهري (ت370هـ) فقال: ((لولا إنَّما هي (لو) و(لا) جمعتا فخرجت (لو) من حدّها و(لا) من الجحد إذا جمعتا فصيرتا حرفًا))[2]. وقال ابن سيده (ت458هـ): ((لولا: إنّما هي (لو) و(لا) حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا ... معنى لو امتناع الشيء لامتناع غيره ومعنى لا النفي والنهي فلمّا ركبا حدث معنى آخر وهو امتناع الشيء لوقوع غيره))[3].

وخرج الجوهري (ت393هـ) عن هذا الإجماع إذ عدّ لولا مركبة من معنى إن ولو فقال: ((وأمّا (لولا) فمركبة من معنى إن ولو، وذلك أنَّ لولا يمنع الثاني من أجل وجود الأول ... وقد تكون بمعنى هلّا))[4].

(لولا) في الاصطلاح

اختلف النحويون في أصل (لولا) فذهب المبرّد (ت285هـ) إلى أنّها مركبة من (لو) و(لا)، فقال: ((ولولا إنّما هي لو ولا جعلتا شيئًا واحدًا وأوقعتا على هذا المعنى))[5]، وهي حرف امتناع لوجوب؛ لأنَّ (لو) حرف امتناع لامتناع و(لا) نافية والامتناع إنّما هو نفي في المعنى فدخل النفي بـ (لا) على أحد امتناعي (لو) ونفي النفي إثبات، فصار معنى (لولا) امتناع الشيء لوجود غيره.

وذهب آخرون إلى أنّها مركبة من معنى إن ولو، قال ابن السرّاج (ت316هـ): ((لولا وهي مركبة من إن ولو تبدأ بعدها الأسماء وذلك أنّها تمنع الثاني لوجود الأول))[6]، ويبدو أنَّهم أرادوا من معنى إن هو الشرط، لأنَّ (لولا) حرف شرط غير جازم، و(إن) حرف شرط يفيد تعلق أمر بغيره عمومًا[7]، وهو حاصل في (لولا) لأنَّ امتناع الثاني متوقف على وجود الأول، وأمّا معنى (لو) فأرادوا منه معنى الامتناع في (لولا).

أقسامها

(لولا) حرف يأتي على قسمين، **الأول:** أن يكون حرف امتناع لوجود، أي حرف يدلّ على امتناع الشيء لوجود غيره[8]، وتسمى أيضًا الامتناعية[9]، وهي تختص بالدخول على الأسماء الظاهرة والمضمرة، نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ [الصافات/57]، وقوله تعالى: ﴿**لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**﴾ [سبأ من الآية/31].

إلا أنَّ صاحب رصف المباني (ت702هـ) ذهب إلى أنَّ تفسيرها يكون بحسب الجمل التي تدخل عليها، فإن كانت الجملتان بعدها موجبتين فهي حرف امتناع لوجوب، نحو قولك: لولا زيد لأحسنت إليك فالإحسان امتنع لوجود زيد، وإن كانتا منفيتين فهي حرف وجوب لامتناع نحو: لولا عدم قيام زيد لم أحسن إليك، وإن كانتا موجبة ومنفية فهي حرف وجوب لوجوب نحو: لولا زيد لم أحسن إليك، وإن كانتا منفية وموجبة فهي حرف امتناع لامتناع نحو: لولا عدم زيد لأحسنت إليك[10].

---

(1) كتاب العين: 350/8
(2) تهذيب اللغة: 248/15
(3) المحكم والمحيط الأعظم: 361./10
(4) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: 2554/6.
(5) المقتضب: 76/3، وينظر: سر صناعة الإعراب: 314/1، وإعراب لامية الشنفرى: 88/1، ورصف المباني في شرح حروف المعاني: 292
(6) الأصول في النحو: 211/2، وينظر: اللامات للزجاجي: 129/1
(7) ينظر: الإيضاح في شرح المفصّل: 241/2
(8) ينظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها، والجنى الداني في حروف المعاني: 597
(9) ينظر: الجنى الداني: 597
(10) ينظر: رصف المباني: 293

الاسم بعد (لولا) الامتناعية

وقع الخلاف بين البصريين والكوفيين في العامل لرفع الاسم بعد (لولا) الامتناعية، فذهب البصريون إلى أنَّ الاسم بعدها ظاهرًا كان أو مضمرًا جاء بصيغة الرفع كما في الأمثلة السابقة، يكون مرتفع بالابتداء وخبره محذوف لزومًا[1].

واستدلّ أبو البقاء العكبري (ت616هـ) على أنَّ الاسم بعد لولا مرتفع على الابتداء من وجهين الأول: أنَّ لولا تقتضي اسمين يكون الثاني منهما خبرًا ودليل ذلك جواز ظهوره وإن لم يستعمل، والثاني: أنَّ لولا لا تختص بالأسماء بل تدخل عليها وعلى الأفعال، والحرف إنّما يعمل إذا كان مختصًا[2].

أمّا الكوفيون فاختلفوا في سبب رفعه فذهب الكسائي (ت189هـ) إلى أنَّه مرتفع بتقدير فعل، فلو قلت: لولا زيد لأكرمتك، فالمعنى لولا وُجِدَ زيد لأكرمتك إلّا أنَّ صاحب رصف المباني ذكر أنَّ الاسم بعد لولا يرتفع بتقدير فعل نابت (لا) منابه، فالقول: لولا زيد لأكرمتك، معناه لو انعدم زيد لأكرمتك. وعدّ هذا هو الصحيح، وعليه فإنَّ الاسم بعدها ظاهرًا كان أو مضمرًا منفصلًا ليس مبتدأ[3].

وذهب الفرّاء (ت207هـ) إلى أنَّ الاسم مرفوع بـ (لولا) نفسها[4].

أمّا إذا دخلت على مضمر منصوب أو مجرور فهي حرف جر عند سيبويه (ت180هـ)، قال: ((هذا باب ما يكون مضمَراً فيه الاسم متحولًا عن حاله إذا أُظهر بعده الاسم وذلك لولاك ولولاي، إذا أضمرت الاسم فيه جُرّ، وإذا أظهرت رُفع. ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت لولا أنت، كما قال سبحانه: ﴿**لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**﴾ ؛ ولكنهم جعلوه مضمَرًا مجرورًا. والدليل على ذلك أنَّ الياء والكاف لا تكونان علامةَ مضمَر مرفوع. قال الشاعر، يزيد بن الحكَم:

وكَمْ موطنٍ لولايَ طِحتَ كما هَوَى بأَجْرامه من قُلةِ النّيقِ مُنهَوي

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس))[5]. وحجَّته في ذلك أنَّ خروج الصيغة بالحرف أولى من خروجها بالاسم لأنَّ الحرف أضعف من الاسم[6].

ويرى الأخفش (ت215هـ) وبعض الكوفيين أنَّ (لولا) باقية على بابها من رفع ما بعدها وخرج بالصيغة من الرفع إلى الخفض، كما خرج بصيغة الخفض إلى صيغة الرفع في قولهم: مررت بك أنت، حين جعل توكيدًا لضمير الخفض[7]، فهو مخفوض في اللفظ فقط[8]. واستظهر هذا القول صاحب رصف المباني، فقال: ((والأظهر عندي من هذين القولين قول الأخفش لوجهين: أحدهما: أنّا إذا جعلنا (لولا) حرف جر فيجيء حرفان يعملان في معمول واحد، وذلك غير موجود في كلامهم، والوجه الثاني: أنّا إذا جعلنا (لولا) حرف جر فتحتاج إلى متعلق به، إذ ليست زائدة كالباء في (بحسبك) وليس في الكلام ما تتعلق به، ولا يُحتج بـ (ربَّ) لأنَّها لازمة للخفض، وفي الكلام الداخلة عليه ما تتعلق به بعدها))[9].

حذف الخبر بعد (لولا) الامتناعية

وقع الخلاف أيضًا بين النحويين في الخبر بعد (لولا)، فقال البصريون إنَّه واجب الحذف، فإن أرادوا إظهاره جاءوا بـ (أنَّ)[10] وهو لا يكون عندهم إلا كونًا مطلقًا[11]، فإن أريد به الكون المقيد لم يجز أن تقول: (لولا زيد قائم) ولا أن تحذفه

(1) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: 70/1
(2) ينظر: اللباب في علل البناء والإعراب: 331/1، ومغني اللبيب: 237/1
(3) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: 60/1، ورصف المباني: 294، والجنى الداني: 602
(4) ينظر: معاني القرآن للفرّاء: 404/1
(5) كتاب سيبويه: 373/2
(6) ينظر: رصف المباني: 296
(7) رصف المباني: 296
(8) ينظر: الأزهية في علم الحروف: 171
(9) رصف المباني: 296
(10) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: 58/1
(11) ينظر: الإيضاح في شرح المفصّل: 235/2، والجنى الداني: 598، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: 237/1، وشرح ابن عقيل: 250/1

بل تجعل مصدره هو المبتدأ فتقول: (لولا قيام زيد لأكرمتك)، أو تدخل (أنَّ) المفتوحة على المبتدأ فتقول: (لولا أنَّ زيدًا قائم) فتصير أنَّ وصلتها إما مبتدأ محذوف الخبر وجوبًا أو مبتدأ لا خبر له، فاعلًا بفعل محذوف[1].

وذهب الرماني (ت384هـ) وابن الشجري (ت542هـ) وابن الشلوبين (ت645هـ) إلى أنَّ الخبر بعد (لولا) ليس واجب الحذف على الإطلاق بل فيه تفصيل، وهو إن كان كونًا مطلقًا غير مقيد وجب حذفه نحو: لولا زيد لأكرمتك، لأنَّ التقدير موجود ونحوه، وإن كان كونًا مقيدًا، فإمّا أن يدل عليه دليل، أو لا، فإن لم يدل عليه دليل وجب ذكره نحو: لولا زيد محسن إليّ ما أتيتك، وإن دلّ عليه دليل جاز إثباته وحذفه نحو: أن يقال: هل زيد محسن إليك؟ فتقول: لولا زيد لهلكت، أي لولا زيد محسن إليّ، فإن شئت حذفت الخبر وإن شئت أثبته[2]، ومنه قول المعري:

يُذِيبُ الرُّعْبَ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلاَ الغِمْدُ يُمْسِكهُ لَسَالاَ

فقد ذكر خبر المبتدأ الواقع بعد لولا لأنَّه كون مقيد دلَّ عليه دليل وهو كلمة (يمسك)[3]، لكنَّ هذا البيت عند الجمهور ممّا وقع فيه اللحن لذكر الخبر بعد لولا. وفي البيت توجيه آخر يصح على مذهب الجمهور هو أنَّ يمسك في تأويل مصدر بدل اشتمال من الغمد وأصله (أن يمسكه) فلما حذف (أن) ارتفع الفعل[4].

جواب (لولا) الامتناعية

يكون جواب لولا الامتناعية ماضٍ مثبتٍ مقرونٍ باللام، كقوله تعالى: ﴿**لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**﴾ [سبأ من الآية/31]، أو منفي بـ (ما) كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾ [النور من الآية/21]، وقد يأتي المثبت خاليًا من اللام، كقول الشاعر:

لَوْلاَ الحَياءُ، وَبَاقِي الدِّينِ عِبْتُكُما بِبَعْضِ مَا فِيكُما، إذْ عِبْتُما عَوْرِي

ونقل المرادي (ت749هـ) عن ابن عصفور(ت669هـ) أنَّ حذف اللام من جواب لولا ضرورة، لكنَّه أجازه في قليل الكلام، وأنَّ بعضهم قد سوّى بين حذف اللام وإثباتها في لو ولولا[5]. وقد يأتي المنفي بـ (ما) مقرونً باللام، كقول الشاعر:

لَوْلاَ رَجَاءُ لِقاءِ الظّاعِنينَ لَما أبْقَتْ نَواهُم لَنا رُوحًا وَلاَ جَسَدًا

ثمّ إنّ الجواب قد يحذف إذا دلَّ عليه دليل، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾ [النور/10][6]

أمّا القسم **الثاني** من أقسام (لولا) فهو أن تكون حرف تحضيض بمعنى (هلّا) وهذه تختص بالأفعال[7]، فإذا دخلت على المضارع أفادت التحضيض نحو قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ**﴾ [النمل من الآية/46]، أو العرض نحو قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾ [المجادلة من الآية/8]، والفرق بين التحضيض والعرض هو أنَّ الأول ترغيب بقوة لفعل الشيء أو تركه، أمّا الثاني فهو طلب فعل الشيء بلين ورفق[8]، وأمّا إذا دخلت على فعل ماض فتفيد التوبيخ والتنديم نحو قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**﴾ [النور من الآية/13][9]. ثمّ إنَّ الفعل بعدها قد يكون مقدرًا، ومن ذلك قول الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفْضَلَ مَجْدِكُم بَنِي ضَوْطَرى لَوْلاَ الكَمِيَّ المُقَنّعا

---

(1) ينظر: مغني اللبيب: 237/1
(2) ينظر: الجنى الداني: 599، ومغني اللبيب: 237/1
(3) ينظر: شرح الكافية الشافية: 355/1، والجنى الداني: 599، وشرح الأشموني: 206/1، وشرح التصريح: 225/1
(4) ينظر: شرح ابن عقيل: 1252
(5) ينظر: الجنى الداني: 598
(6) ينظر: ينظر: شرح الكافية الشافية: 1650/3، والجنى الداني: 597، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع: 575/2
(7) ينظر: الأصول في النحو: 185/2، واللامات للزجاجي: 129/1، والمفصّل في صنعة الإعراب: 331/1
(8) ينظر: ضياء السالك: 77/4
(9) ينظر: رصف المباني: 292، والجنى الداني: 608، ومغني اللبيب: 238/1، وشرح ابن عقيل:427

فنصب الكمي على إضمار كلام مقدر، أي: لولا تعدون الكمي[1].

هذان هما القسمان الرئيسيان من أقسام (لولا)، واللذان عليهما أكثر النحويين، إلا أنَّ بعض النحويين ذهب إلى أنَّ (لولا) قد تأتي بمعنى (لو لم)، قال المرادي (ت749هـ): ((واعلم أنّه قد بقي للولا قسم آخر، تكون فيه بمعنى لو لم. وهذه غير مركبة بل كان من الكلمتين على ما كانت عليه قبل التركيب، كقول الشاعر:

أَلاَ زَعَمَتْ أَسْمَاءُ أَنْ لا أُحِبُّهَا فَقُلْتُ: بَلَى، لَوْلاَ يُنَازِعُنِي شُغْلِي

فهذه قد وليها الفعل، وليست للتحضيض، والامتناعية لا يليها الفعل))[2]

وذكر ابن هشام (ت761هـ) أنّ لولا في البيت السابق بمنزلة (لو لم) وأنّ الجواب محذوف، والتقدير: لو لم ينازعني شغلي لزرتك[3].

وقد تأتي (لولا) للاستفهام، وهو ما ذهب إليه الهروي (ت415هـ)، وجعل منه قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ [المنافقون من الآية/10] وكذا قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**﴾ [الأنعام من الآية/8][4]، إلا أنَّ ابن هشام ذكر أنَّ أكثر النحويين لا يذكرون هذا الوجه، وعدَّ (لولا) في الآية الأولى للعرض، وفي الثانية للتوبيخ والتنديم[5].

ونقل الزجاجي (ت337هـ) عن بعض المفسرين وجهًا آخر لـ (لولا) وهو النفي، فقال: ((وبعض المفسرين جعل لولا في قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ**﴾ بمعنى لم))[6]، وذهب الهروي إلى هذا المعنى أيضًا وجعل منه كذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ [هود من الآية/116]، أي فلم يكن[7]، واستظهر ابن هشام أنَّ معنى لولا في الآية الأولى هو التوبيخ أي فهلّا كانت قرية واحدة من القرى المهلكة تابت عن الكفر قبل مجيء العذاب فنفعها ذلك، ونسب ذلك إلى الأخفش والكسائي والفرّاء وعلي بن عيسى (ت384هـ) والنحّاس (ت339هـ)[8].

<u>المبحث الأول</u>: (لولا) الامتناعية في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [البقرة/64].

لم تخرج (لولا) في هذه الآية عن وضعها الطبيعي من كونها حرف امتناع لوجوب، على ذلك إجماع المفسرين سوى ما ذكره ابن أبي حاتم (ت327هـ) في تفسيره من أنَّ لولا في الآية تعني هلّا[9]، وهذا خلاف ما قرره النحاة من أنَّ لولا التي بمعنى هلّا إنّما تدخل على الجملة الفعلية، وأنَّها لا تستلزم جوابًا، أمّا التي تدخل على الأسماء وما في حكمها فهي الامتناعية والتي لا بد لها من جواب مذكور أو مقدر وهذا متحقق في الآية فـ (لكنتم من الخاسرين) جوابها.

وخلاصة ما ذكره المفسرون في معنى الآية يُشعر بذلك، فقد قال الطبري (ت310هـ): (((فلولا فضل الله عليكم) فلولا أن تفضل عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه ... لكنتم من الخاسرين))[10]، وذكر البغوي (ت510هـ) أنَّ ((فضل الله عليكم ورحمته، يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم لكنتم لصرتم من الخاسرين))[11]، وقال الزمخشري (538هـ): ((فلولا فضل الله عليكم بتوفيقكم للتوبة لخسرتم))[12]، ونقل الرازي (ت606هـ) إشكالًا عن لولا الامتناعية في ذلك خلاصته أنَّ لولا في الآية الشريفة لمّا كانت تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره؛ فهذا يعني أنَّ انتفاء الخسران ممتنع لوجود

---

(1) ينظر: الجمل في النحو: 129
(2) الجنى الداني: 608
(3) ينظر: مغني اللبيب: 240/1
(4) ينظر: الأزهية في علم الحروف: 166
(5) ينظر: مغني اللبيب: 239/1
(6) حروف المعاني والصفات: 3/1
(7) ينظر: الأزهية في علم الحروف: 169
(8) ينظر: مغني اللبيب: 239/1
(9) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (تفسير ابن أبي حلتم): 131/1
(10) جامع البيان (تفسير الطبري): 164/2
(11) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): 126/1، وينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 386/1
(12) الكشّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 147/1

فضل الله تعالى، فمتى حصل الخسران فهذا يعني أنَّ اللطف غير موجود، وهذا يستلزم أنَّ الله تعالى لم يفعل بالكافر شيئًا من الألطاف لثبوت أنَّ الكافر من الخاسرين[1]. ثمَّ نقل ردَّ الكعبي (ت319هـ) وخلاصته أنَّ الله تعالى سوّى بين الكلِّ في الفضل لكنَّ البعض انتفع به دون البعض الآخر. وعدَّ الرازي هذا الرد ساقطًا لثبوت أنَّ لولا تفيد امتناع الشيء لثبوت غيره[2].

والصحيح ما ذهب إليه أبو القاسم الكعبي ويؤيده قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان/3]، فالهداية متحققة للجميع وهي من ألطاف الله وأفضاله، وإنَّما تكون الفائدة منها أو عدمها باختيار الإنسان نفسه، وعلى هذا يمكن أن يقال في الإنسان الذي اختار السبيل الأولى وكان شاكرًا، لولا فضل الله عليه بأن هداه السبيل لكان كفورًا.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف/24]

ذهب أغلب المفسرين إلى أنَّ الهمَّ قد حصل من يوسف إلّا أنَّهم اختلفوا في طبيعة ذلك الهمّ، فذهب قوم إلى القول بأنَّ يوسف7 همَّ بنفسه الطبيعية إلى الميل إليها، وهمَّ بنفس التوفيق والعصمة الفرار منها ومخالفتها، ومعنى ذلك أنَّ الله عصمه، ولولا عصمة ربّه لهمّ بها متبعًا ما دعته نفسه إليه[3]. وفصّل قوم من المفسرين في بيان ذلك الهمّ الذي حصل منه، فذهب بعضهم إلى أنَّه كان من جنس همّ المرأة، بمعنى أنَّه من حيث الفعل الذي أرادته، حتى تجرؤا في ذلك ونسبوا إليه ما لا يجوز، كقولهم أنَّه همَّ بفعل الخطيئة حتى جلس بين رجليها وحلّ الهميان وغير ذلك[4]. وذهب آخرون إلى اختلاف الهمّين، فهمّها كان بتحقيق مرادها، وهمّه كان بضربها، وقد استبعد ذلك ابن جزي (ت741هـ) بقوله: ((وهو بعيد، يرده قوله: لولا أن رأى برهان ربه))[5].

وقد اعتذر الزمخشري لأولئك المفسرين بقوله: ((فإن قلت كيف جاز لنبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ قلت المراد أنَّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعته إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلًا يشبه الهمّ والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم))[6]. وهذا القول مردود إذ إنَّ الذي استخلصه الله تبارك وتعالى لتأدية رسالته كيف يجوز أن يهمّ بالمعصية لدرجة أنَّه لا يكترث بالبرهان لمرات عدّة حتى يتمثل له يعقوب7 وهو عاضٌّ على أنامله، أو أنَّ الله تعالى يقول لجبرائيل7 أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة[7].

أقول: إنَّ أي شخص يكون في مكان يوسف7 في تلك الحال ويرى من البراهين أو أن يأتيه جبرائيل7 ليمنعه من ارتكاب الخطيئة فسوف يمتنع ويكون مثله لا فرق بينهما، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ في غير محله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ويبدو أنّ دافع المفسرين لهذه الأقوال هو تمسكهم بالقاعدة النحوية، وهي عدم جواز تقدّم جواب لولا عليها لأنَّها في حكم أدوات الشرط، فقد صرح بذلك غير واحد منهم[8].

وذهب قسم من المفسرين إلى أنَّ الهمّ من يوسف7 لم يقع البتة بل هو منفي لوجود رواية البرهان[9]، وأنَّ معنى الكلام: ولقد همت به، انتهى الخبر عنها. ثمّ ابتدئ الخبر عن يوسف فقيل: وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه، فتكون الجملة

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: 539/3
(2) ينظر: المصدر نفسه، والصحيفة نفسها، وينظر: المصدر نفسه: 156/10
(3) ينظر: تفسير التستري: 81/1
(4) ينظر: أحكام القرآن للجصاص: 384/4، وبحر العلوم: 188/2، والكشف والبيان عن تفسير القرآن: 209/5، والنكت والعيون: 3:23، والكشّاف: 455/2
(5) التسهيل لعلوم التنزيل: 384/1
(6) الكشّاف: 455/2
(7) ينظر المصدر نفسه، والصحيفة نفسها
(8) ينظر: تفسير الطبري: 37/16، إعراب القرآن للنحّاس: 199/2، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي): 160/3
(9) ينظر: البحر المحيط في التفسير: 257/6، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون: 466/6، وتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد (الحرير والتنوير): 252/12

الثانية معطوفة على جملة ولقد همّت به كلّها وليست معطوفة على جملة همّت[1]. واختُلف في جواب لولا، فقيل هو متقدّم عليها للاهتمام به[2]، وهو قوله تعالى: (همّ بِها) عند من يجيز التقديم. قال مكي القيسي (ت437هـ): ((وقال أبو عبيدة: المعنى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ): تَمَّ الكلام. ﴿**وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾: لولا أن رأى برهان ربه، هَمَّ بِها: على التقديم والتأخير، ينفي عن يوسف أن يكون هَمَّ بالخطيئة))[3].

وذكر أبو حيان (ت745هـ) أن تقديم جواب لولا مما لا يقوم دليل على امتناعه، وإنَّ ممن ذهب إلى جواز ذلك أبو زيد الأنصاري (ت225هـ) وأبو العباس المبرد[4]. على أنّ أبا حيان يرى أنَّ جواب لولا محذوف دلّ عليه ما قبله، كما تقول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدّرونه إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قولهم أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذا هنا التقدير لولا أن رأى برهان ربّه لهم بها، فبرؤية البرهان انتفى الهمّ[5].

قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ [الفرقان/77]

تقدّم أنّ (لولا) في الأصل تكون حرف امتناع لوجوب، لكنَّ دلالتها هذه تختلف بحسب الجمل التي تدخل عليها من جهة الإيجاب والنفي[6]، وهي في هذه الآية حرف وجوب لوجوب، إذ دخلت على جملتين الأولى موجبة والثانية منفية، على رأي من يرى أو يجوّز أن تكون (ما) نافية[7] وليست استفهامية، وهو الأقرب للمعنى ولا تكلف فيه، وحتى لو قيل أنَّها استفهامية فهو نفيٌ خرج مخرجًا استفهاميًا[8]،((ولا حاجة إلى التجويز في شيء يصح أن يكون حقيقة بنفسه))[9]، فالمعنى على هذا: إنَّ الله لا يبالي بكم ولا يعتني بشأنكم لولا دعاؤكم، وجواب لولا على هذا إمّا محذوف يفسره ما قبله، أو مقدّم على لولا للاهتمام به عند من يجوّز ذلك، فكأنَّ المعنى: لولا دعاؤكم لم يعتني بكم. وهو كناية عن قلّة الاعتناء.

وقد اختلف المفسرون في المراد من كلمة (دعاؤكم) هل أنَّ المراد بها دعوة الله سبحانه للإنسان لتوحيده وعبادته؟ فيكون المعنى: إنَّ الله لا يعبؤا بكم في أي وضع من الأوضاع لولا دعاؤه لكم لتهتدوا ولتعبدوه وحده لا شريك له. وهو ما ذهب إليه مجاهد (ت104هـ)[10]، والفرّاء[11]. أو أنَّ المراد بها دعاء العبد لله تبارك وتعالى فيما يهمّه من أمور الحياة أو فيما يحسّه من مشاعر الإيمان، والخشوع له سبحانه، والخضوع إليه ليعبّر عن توحيده سواء بالكلمة أو بالحركة أو الابتهال، فيكون المعنى على هذا: إنَّ الله لا يعبؤا بكم لولا دعاؤكم إيّاه، وأجاز هذا الوجه جملة من المفسرين[12].

وربما يكون الوجه الثاني أقرب؛ لأنَّ الذي يظهر من الآية الشريفة هو التركيز على الوضع الذي ينال به الإنسان اعتناء الله سبحانه به ورعايته له وهذا يتحقق عند الدعاء، فالدعاء الحقيقي هو الذي يمنح الإنسان رعاية الله وعنايته به، فهو يمثل إيمان العبد وخضوعه لله تبارك وتعالى، زيادة على أنَّه يكون كاشفًا- وبلا شك- عن توحيد العبد لربّه[13].

وقد يؤيد هذا المعنى ما روي عن الإمام الباقر7 حين سُئِل عن كثرة القراءة أفضل؟ أم كثرة الدعاء؟ فقال7: كثرة الدعاء أفضل وقرأ الآية ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[14].

([1]) ينظر: تفسير الطبري: 38/16، والتحرير والتنوير: 252/12
([2]) ينظر: التحرير والتنوير: 252/12
([3]) الهداية إلى بلوغ النهاية: 3543/5، وينظر التحرير والتنوير: 252/12
([4]) ينظر البحر المحيط: 257/6
([5]) ينظر المصدر نفسه، والصحيفة نفسها
([6]) ينظر: صحيفة (2) من هذا البحث
([7]) ينظر: الكشّاف: 297/3، ومفاتيح الغيب: 488/24، والبحر المحيط: 134/8
([8]) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): 84/13
([9]) الدر المصون: 507/8
([10]) ينظر: تفسير مجاهد: 508/1
([11]) ينظر: معاني القرآن للفرّاء: 275/2
([12]) ينظر: النكت والعيون: 162/4، تفسير البغوي: 360/3، ومفاتيح الغيب: 489/24
([13]) ينظر: من وحي القرآن: 83/17-84
([14]) ينظر: الميزان في تفسير القرآن:247/15

قوله تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [الفتح/25]

ذهب المفسرون إلى أنّ المصدر المؤوّل من قوله تعالى: (أن تطؤوهم) إمّا أن يكون بدلًا من قوله تعالى: (رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات) فيكون مرفوعًا، ويكون تقدير الكلام على هذا: ولولا وطءُ رجال مؤمنين ونساء مؤمنات غير معلومين[1]. أو يكون بدلا من مفعول (تعلموهم)، فيكون التقدير على هذا: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا وطأهم[2]، وهو على كلا الوجهين بدل اشتمال.

أمّا جواب (لولا) فيه ثلاثة أوجه، الأول: أن يكون محذوفًا لدلالة الكلام عليه، والتقدير: لولا أن تطئوا رجالًا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم لأذن لكم في دخول مكة، وهذا اختيار النحّاس[3]، ومكي القيسي[4]، وقيل التقدير: لما كفَّ أيديكم عنهم[5]، والثاني: أنَّ الجواب مذكور، وهو(لعذّبنا)، وجواب (لولا) هو المحذوف لدلالة الأول عليه[6]، والثالث: أنَّ (لعذّبنا) جوابهما معًا وهو ما أجازه الزمخشري بقوله: ((ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا رجال مؤمنون، لمرجعهما إلى معنى واحد ويكون لعذَبنا هو الجواب))[7]، وردّ أبو حيان على ذلك بقوله: ((وقوله لمرجعهما إلى معنى واحد ليس بصحيح، لأنَّ ما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية: فالمعنى في الأولى: ولولا وطء قوم مؤمنين، والمعنى في الثانية: لو تميّزوا من الكفار وهذا معنى مغاير للأوّل مغايرة ظاهرة))[8]. لكنّ ابن عاشور(ت1393هـ) دافع عن رأي الزمخشري وعدّ مرجع الشرطين إلى معنى واحد فقال: ((ويجوز اعتبار جواب لولا مرتبطًا على وجه تشبيه التنازع بين شرطي لولا ولو لمرجع الشرطين إلى معنى واحد وهو الامتناع فإنَّ لولا حرف امتناع لوجود أي تدل على امتناع جوابها لوجود شرطها ولو حرف امتناع لامتناع، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها فشرط لو منتفٍ وشرط لولا مثبت))[9]. وهذا مما لم يقل به النحويون.

المبحث الثاني: (لولا) التي بمعنى (هلّا) في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة/63].

تقدّم أنَّ الثاني من أقسام (لولا) –على ما قرره النحاة– هو الذي تختص فيه بالأفعال وتكون حرف تحضيض بمعنى (هلّا)، فإن دخلت على المضارع كانت للتحضيض أو العرض، وإن دخلت على الماضي أفادت معنى التوبيخ أو التنديم[10].

لكنّ المفسرين ذهبوا إلى أنَّ (لولا) في هذه الآية – وبالرغم من دخولها على الفعل المضارع (ينهاهم) وإفادتها معنى التحضيض– دلّت على التوبيخ أيضًا.

([1]) ينظر: إعراب القرآن للنحّاس: 134/4، والهداية إلى بلوغ النهاية: 6964/11، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية): 137/5، والبحر المحيط: 495/9، والدر المصون: 716/9

([2]) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية: 6964/11، و ينظر: تفسير ابن عطية: 137/5

([3]) ينظر: إعراب القرآن للنحّاس: 134/4

([4]) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية: 1964/11

([5]) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): 111/8، والميزان في تفسير القرآن: 292/18

([6]) ينظر: الدر المصون: 716/9

([7]) الكشّاف: 343/4

([8]) البحر المحيط: 495/9، وينظر: الدر المصون: 716/9

([9]) التحرير والتنوير: 189/26

([10]) ينظر: صحيفة (5) من هذا البحث

فقد ذكر الرازي أنَّ معنى (لولا) ها هنا التحضيض والتوبيخ وهو بمعنى هلّا[1]. وقال أبو حيان: ((لولا تحضيض يتضمن معنى توبيخ العلماء على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله تعالى والأمر بالمعروف))[2]. ونُقل عن الضحّاك (ت102هـ) أنَّه قال: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، كما نقل نحو من ذلك عن ابن عباس[3].

وقال العلامة الطباطبائي (ت1412هـ) بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة من الآية/62]: ((ثمّ أتبعه بتوبيخ الربانيين والأحبار في سكوتهم عنهم وعدم نهيهم عن ارتكاب الموبقات من الآثام والمعاصي وهم عالمون بأنَّها معاصٍ وذنوب))[4].

أقول: من المعلوم أنَّ الفعل المضارع إذا أطلق يدل على الحال والاستقبال فـ ((تقول (زيد يأكل) فيصح أن يكون في حال الأكل وأن يأكل في المستقبل))[5]، ولا يصرف إلى أحدهما على نحو التخصيص إلّا بقرينة تصرف المعنى إلى أحدهما[6]، والآية هنا مطلقة، أي أنَّ الفعل (ينهاهم) دالٌّ على الحال والاستقبال، ويستفاد من ذلك إعمام لذلك التوبيخ الشديد للعلماء على سكوتهم وتهاونهم في تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا –بلا شك– لا يشمل عصرًا دون آخر، ولا يختص بأمّةٍ دون سواها.

ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي 7 أنَّه قال: ((فإنَّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي))[7]. وخلاصة القول أنَّ (لولا) في هذه الآية جاءت في الاستعمال القرآني على خلاف ما قرره النحاة.

قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام/43]

اتفق النحاة على أنَّ (لولا) إذا وليها فعل ماض فهي بمعنى (هلّا) وتفيد التنديم[8]، لكّن بعض النحاة وجملة من المفسرين اختلفوا في (لولا) في هذه الآية، فمنهم من اضطرب كلامه ولم يجزم فيها بشيء، ومنهم من ذهب إلى أنَّها تفيد الاستفهام، ومنهم من يرى أنَّها تفيد النفي، وقال آخرون بالتحضيض، وعدَّها البعض دالّة على التنديم والتوبيخ، فكانت آراءهم فيها على النحو الآتي:

الفرّاء مثلًا اضطرب كلامه فيها، فذهب إلى أنَّها بمعنى (هلّا) وهي تفيد معنى الإمتناعية، وبعد ذلك يعدّها استفهامية، يقول: ((معنى (فلولا) فهلّا، ويكون معناها على معنى لولا كأنَّك قلت: لولا عبد الله لضربتك، فإذا رأيت بعدها اسمًا واحدًا مرفوعًا فهو بمعنى لولا التي جوابها اللام وإذا لَمْ تَر بعدها اسمًا فهي استفهام كقوله: ﴿**لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ وكقوله: ﴿**فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**﴾ وكذلك (لوما) فيها ما فِي لولا: الاستفهام))[9].

أقول: كيف تكون (لولا) بمعنى (هلّا) ثمّ يكون معناها معنى لولا الإمتناعية التي جوابها اللام –كما يقول– و(لولا) في الآية لا جواب لها أصلًا، ثمّ كيف يصح هذا الإعمام بقوله: وإذا لم تر بعدها اسمًا فهي استفهام، فهذا يعني أنَّ كل (لولا) بعدها فعل ماض أو مضارع فهي تفيد الاستفهام، وليس الأمر كذلك.

أمّا الطبري فجعلها استفهامًا، قال: ((ومعنى لولا في هذا الموضع، فهلّا، والعرب إذا أولت (لولا) اسمًا مرفوعًا جعلت ما بعدها خبرًا وتلقتها بالأمر... وإذا أوْلتها فعلًا أو لم تولها اسمًا جعلوها استفهامًا... فتأويل الكلام إذًا فهلّا إذ جاء

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: 393/12
(2) البحر المحيط: 312/4، وينظر تفسير أبي السعود: 57/3، والتحرير والتنوير: 246/6
(3) ينظر: تفسير الطبري: 449/10، والبحر المحيط: 312/4
(4) الميزان في تفسير القرآن: 27/6
(5) المقتضب: 2/2
(6) ينظر: معاني النحو: 280/3
(7) نهج البلاغة: 137/2
(8) ينظر: صحيفة (6) من هذا البحث
(9) معاني القرآن للفرّاء: 334/1

بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها الذين لم يتضرعوا عندما أخذناهم بالبأساء والضرّاء))[1]. وهذا خلاف ما قرره النحاة في (لولا).

وذهب الزمخشري إلى أنَّها تفيد النفي، فقال: ((فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، معناه: نفي التضرع، كأنَّه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا))[2]. ووافقه في ذلك الرازي[3]، وأبو البقاء العكبري[4].

وربّما استدلوا على ذلك بعدم حصول التضرع بدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ فهذا الإستدراك يفيد عدم حصول التضرع، إلّا أنَّ غرض الآية –والله العالم– ليس بيان ذلك وإلّا لما احتاج إلى (لولا) بل الغرض بحسب الظاهر هو بيان توبيخهم على تركهم التضرع حين جاءهم بأس الله ومن ثمّ قست قلوبهم.

وذهب آخرون إلى أنَّها بمعنى (هلّا) وأنَّها تفيد التحضيض[5]، لكنَّ قولهم هذا مخالف لما قرره النحاة من أنَّ شرط التحضيض في (لولا) هو دخولها على الفعل المضارع، وهذا غير حاصل في الآية الشريفة. ولم يبق بعد ذلك إلّا أن تكون (لولا) بمعنى (هلّا) وقد أفادت التوبيخ، وهذا ما ذهب إليه الآلوسي[6]، وتبعه في ذلك ابن عاشور، وزاد عليه بتجويزه أن تكون (لولا) للتمني على نحو المجاز، قال: ((ويجوز أنْ تجعل (لولا) هنا للتمني على طريقة المجاز المرسل، ويكون التمني كناية عن الإخبار بمحبة اللَّه الأمر المُتَمَنَّى فيكون من بناء المجاز على المجاز))[7].

قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [يونس/98]

اختلف المفسرون في تحديد دلالة (لولا) في الآية الشريفة تبعًا لتحديد نوع الاستثناء فيها، فذهب الفرّاء إلى أنَّ (لولا) هنا بمعنى (هلّا)، وأنَّها تفيد النفي وأنَّ الاستثناء في الآية منقطع، قال: ((فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها... معناها أنَّهم لم يؤمنوا، ثمّ استثنى قوم يونس بالنصب على الانقطاع مما قبله))[8].

وذهب الزمخشري إلى جواز أن تفيد (لولا) النفي مع كون الاستثناء متصل، فقال: ((ويجوز أن يكون متصلًا والجملة في معنى النفي، كأنَّه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلّا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء))[9].

أمّا أبو الفرج البغدادي (ت597هـ) فذهب إلى جواز أن تقع (لولا) على أحد معنيين، الأول: النفي على ما تقدّم، والتقدير: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس، والثاني: أن تكون بمعنى (هلّا)، أي: فهلّا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلّا قوم يونس[10].

ومن المفسرين من ذهب إلى أنَّ (لولا) ها هنا بمعنى هلّا ويراد منها الاستفهام، على أنَّ المراد من هذا الاستفهام هو الحثُّ والحضُّ على فعل المستفهم عنه والإغراء به، فيكون المعنى على هذا: هلّا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها[11].

فعلى هذا يكون الاستعمال القرآني لـ (لولا) فيما تقدّم خلاف ما قرره النحاة من أنَّها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التوبيخ، وهو ما ذهب اليه أبو حيان، إذ عدَّها تحضيضية بمعنى (هلّا) صحبت التوبيخ، فقال: ((لولا هنا هي التحضيضية التي صحبها التوبيخ، وكثيرًا ما جاءت في القرآن للتحضيض فهي بمعنى هلّا... والمعنى فهلّا آمن أهل القرى))[12].

---

(1) تفسير الطبري: 356/11
(2) الكشّاف: 23/2
(3) ينظر: مفاتيح الغيب: 534/12
(4) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: 496/1
(5) ينظر: تفسير القرطبي: 425/6، والبحر المحيط: 416/4، والدر المصون: 633/4
(6) ينظر: روح المعاني: 143/4
(7) ينظر: التحرير والتنوير: 228/7
(8) معاني القرآن للفرّاء: 479/1، وينظر: تفسير ابن أبي حاتم: 1987/6، وإعراب القرآن للنحّاس: 157/2، وتفسير العز بن عبد السلام: 77/2، وتفسير القرطبي: 383/8
(9) الكشّاف: 371/2
(10) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: 64/4، ومفاتيح الغيب: 303/17، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 499/2
(11) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 1085/6
(12) البحر المحيط: 107/6، وينظر: الدر المصون: 268/6، والتحرير والتنوير: 288/11

قوله تعالى: ﴿**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ [الكهف/15]

اتفق المفسرون على أنَّ (لولا) ها هنا تحضيضية بمعنى (هلّا)، وهم بهذا لم يخرجوا عن دائرة ما قرره النحاة فيها فيما لو دخلت على الفعل المضارع. وقدّروا الكلام على هذا: هلّا يأتون على عبادتهم أيّاها بحجة بيّنة[1]. ولمّا كان الإتيان بالدليل والسلطان على عبادة الأوثان محال؛ ذكر بعض المفسرين أن (لولا) أفادت معان عدّة، منها التعجيز، قال ابن عطية: ((وقوله: لولا يأتون تحضيض بمعنى التعجيز، لأنَّه تحضيض على ما لا يمكن))[2].

ومنها الإنكار قال أبو حيان: ((ولولا تحضيض صحبه الإنكار، إذ يستحيل وقوع سلطان بيّن على ذلك فلا يمكن فيه التحضيض الصرف، فحضهم على ذلك على سبيل التعجيز لهم))[3].

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ هذا التحضيض منصرف إلى التبكيت والتغليط، فقال: ((ولمّا كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذرًا بقرينة أنَّهم أنكروه عليهم انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط، أي اتخذوا آلهة من دون الله لا برهان على آلهيتهم))[4]. فهذه المعاني التي ذكرها المفسرون لم يذكرها النحاة.

الخاتمة:

وبعد هذه الدراسة لدلالة (لولا) في الاستعمال القرآني نوجز ما توصل إليه البحث فيما يأتي:

- اتفاق اللغويين والنحويين على أنَّ (لولا) كلمة مركبة.
- مجيء (لولا) في الاستعمال القرآني على أكثر من صورة، امتناعية، تحضيضية، نافية، استفهامية.
- إمكانية تقدّم جواب (لولا) عليها في الاستعمال القرآني للاهتمام به.
- دلالة (لولا) في الاستعمال القرآني على معان لم يذكرها النحويون كالتمني والتعجيز.
- مجيء (لولا) في الاستعمال القرآني دالة على أكثر من معنى على نحو الجمع بين معنيين، كالتحضيض والتوبيخ، أو التحضيض والاستفهام مثلًا.
- إمكانية مجيء (لولا) التحضيضية الداخلة على الفعل المضارع مفيدة للتوبيخ.

مصادر البحث ومراجعه:

القرآن الكريم

- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت370هـ)، تح: محمد صادق القمحاوي، دار احياء التراث العربي – بيروت، 1405هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت982هـ)، دار احياء التراث العربي – بيروت.
- الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد النحوي الهروي (ت415هـ)، تح: عبد المعين الملّوحي، مجمع اللغة العربية– دمشق، 1413هـ – 1993م.
- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السرّاج (ت316هـ)، تح: د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة – بيروت.

(1) ينظر: تفسير الطبري: 616/17
(2) تفسير ابن عطية: 501/3، وينظر تفسير القرطبي: 366/10
(3) البحر المحيط: 149/7، وينظر: الدر المصون: 454/7، وتفسير أبي السعود: 210/5
(4) التحرير والتنوير:275/15.

- إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحّاس (ت338هـ)، تع: عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1421هـ.
- إعراب لامية الشنفرى، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت616هـ)، تح: محمد أديب عبد الواحد جمران، المكتب الإسلامي – بيروت، ط1، 1404هـ- 1984م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، أبو البركات كمال الدين الأنباري، تح: جودة مبروك محمد مبروك، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت685هـ)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ.
- الإيضاح في شرح المفصّل، أبو عمرو عثمان عمر المعروف بابن الحاجب (ت646هـ)، تح: موسى بناي العليلي، مطبعة العاني بغداد.
- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (ت373هـ)، تح: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، 1420هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد الفاسي الصوفي (ت1224هـ)، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1423هـ- 2002م.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، تح: علي محمد البجاوي، عيسى البابلي الحلبي وشركاه.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير القرآن المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت1393هـ)، الدار التونسية للنشر- تونس، 1984م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزّي الغرناطي (ت741هـ)، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط1، 1416هـ.
- تفسير التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (ت283هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ.
- تفسير العز بن عبد السلام، أبو محمد غز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت660هـ)، تح: د. عبد الله بن ابراهيم الوهبي، دار ابن حزم- بيروت، ط1، 1416هـ- 1996م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن الحنظلي الرازي ابن أبي حلتم (ت327هـ)، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط3، 1419هـ.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت1390هـ)، دار الفكر العربي- القاهرة.
- تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي (ت104هـ)، تح: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة – مصر، ط1، 1410هـ- 1989م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت370هـ)، تح: يعقوب عبد النبي، راجعه: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ- 2000م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت671هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ- 1964م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، ابو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي (ت749هـ)، تح: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1413هـ- 1992م.

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت756هـ)، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي (ت702هـ)، تح: أحمد محمد الخرّاط، مجمع اللغة العربية– دمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت1270هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت597هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1422هـ.
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: د. حسن هنداوي، دار القلم – دمشق، ط1، 1985م.
- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي (ت769هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة – مصر، ط14، 1384هـ– 1964م.
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالكين إلى ألفية ابن مالك، نور الدين علي بن محمد الأشموني (ت900هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة – مصر، ط1، 1955م.
- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري (ت905هـ)، تح: أحمد السيد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1421هـ– 2000م.
- شرح الكافية الشافية، ابن مالك الأندلسي، تح: د. عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى – مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط1.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4، 1407هـ– 1987م.
- ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد بن عبد العزيز النجار، مؤسسة الرسالة، ط1، 1422هـ– 2001م.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي، د. وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (ت180هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط3، 1408هـ، 1988م.
- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود جار الله الزمخشري (ت538هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن, أبو إسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي (ت427هـ)، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، تد: نظير الساعدي، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1422هـ– 2002م.
- اللامات، عبد الرحمن بن اسحاق البغدادي الزجاجي (ت337هـ)، مازن المبارك، دار الفكر– دمشق، ط2، 1405هـ– 1985م.
- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، تح: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر– دمشق، ط1، 1416هـ– 1995م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت542هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1422هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيدة (ت458هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1421هـ– 2000م.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت510هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1420هـ.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفرّاء (ت207هـ)، تح: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح اسماعيل شلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، – مصر، ط1.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار احياء التراث العربي – بيروت ، ط1، 1428هـ– 2007م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تح: د. مازن المبارك، ود. محمد علي حمد الله، دار الفكر– دمشق، ط6، 1985م.
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أو تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي (ت606هـ)، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1420هـ.
- المفصّل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تح: علي أبو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1993م.
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب – بيروت.
- من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله (ت1431هـ)، دار الملاك، ط2، 1419هـ– 1998م.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري (ت1414هـ)، مطبعة شريعت – قم، ط2، 1428هـ– 2007م.
- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت1412هـ)، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ط1، 1417هـ– 1997م.
- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت450هـ)، تح: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت.
- نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده، مؤسسة الأعلمي، بيروت– لبنان، دار مكتبة كرم، دمشق– سوريا.
- الهداية الى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، مكي القيسي، تح: مجموعة رسائل جامعية – جامعة الشارقة، ط1، 1429هـ– 2008م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة الوقفية، مصر.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت468هـ)، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم– دمشق، الدراسات الشامية – بيروت، ط1، 1415هـ.